الفصل الأول

عوامل سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب

نظريات وآراء حول سقوط الإمبراطورية الرومانية

يستهوي موضوع ظهور الدول وسقوطها المؤرخين ، الذين ينبرون في دراسة أسباب ظهور هذه الدول وإنحدارها ثم سقوطها . وقد إختلف المؤرخون في تفسيرأسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب، ويرتبط ذلك بطبيعة الخلفية الفكرية لهؤلاء المؤرخين. وقد حاول كل منهم ان يفسر سقوط الإمبراطورية تفسيراً معيناً متجاوزاً العوامل والأسباب الأخرى. ويمكن تلخيص أهم النظريات حول سقوط الإمبراطورية الرومانية بما يأتي :

1- التفسير الديني :

ينقسم التفسير الديني الى قسمين ، التفسير الوثني والتفسير المسيحي ،فقد عزى المؤرخون الوثنيون سقوط الإمبراطورية الرومانية الى ابتعاد الرومان عن عبادة الآلهة الوثنية وفي مقدمة هؤلاء المؤرخ زوزيميوس (Zosimus)، الذي عزى سقوط الإمبراطورية الرومانية الى عزوف الرومان عن عبادة الإلهة الوثنية والى انتشار الديانة المسيحية ، فادى ذلك الى غضب الالهة الرومانية.

اما المؤرخ الوثني الأخر فهو إميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus ، المولود عام 330 في أنطاكيا ،الذي عزى ضعف الإمبراطورية الى فقدان الوازع الخلقي وعدم الشعور بالمسؤولية. لم يقتنع المؤرخون المسيحيون بهذا التفسير وحاولوا تفنيده ،وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين القديس أوغسطين Saint Augustine (354-430م) . ولد اوغسطين في الجزائر من أصل روماني وكان أبوه موظفاً ويملك بعض الأراضي الزراعية ،نشأ وثنياً ثم اعتنق المسيحية في شبابه الأول ثم درس في قرطاجة وبعدها سافر الى ايطاليا . هداه القديس امبروس الى المعتقد الأصلي.

وفيما يخص سقوط الإمبراطورية الرومانية ،حاول اوغسطين ان يدافع عن وجهة النظر المسيحية ،ويتضح ذلك في كتابيه **مدينة الله** (The City of God) و**الاعترافات** (The Confessions).

يرى أوغسطين ان هناك صراعا بين مدينتين على الأرض: الأولى هي مدينة الله التي تمثل الخير والثانية هي مدينة الشر التي تمثل الشيطان. والحياة هي عبارة عن صراع بين مدينة الخير ومدينة الشر ،وان سقوط الإمبراطورية الرومانية جاء بسبب انحياز الرومان الى الآلهة الوثنية وابتعادهم عن الديانة المسيحية الجديدة ،لذلك فان سقوط الإمبراطورية الرومانية لم يكن بسبب ظهور هذه الديانة بل بسبب ابتعاد الرومان عن المثل والقيم الأخلاقية . لقد جاء رد فعل

Scanned with CamScanner

أوغسطين دفاعٌ عن المثل والقيم الأخلاقية ودفاعٌ عن المسيحية وتفنيد لوجهة النظر الدينية الوثنية .وعلى أية حال، فأن التفسير الديني بشقيه الوثني والمسيحي يؤكد على ان سقوط الإمبراطورية الرومانية جاء لأسباب دين ية.

2- التفسير الاقتصادي :

يرى أنصار هذا التفسير ان سقوط الإمبراطورية الرومانية جاء لأسباب اقتصادية أثرت على وضع الإمبراطورية مما أدى الى سقوطها في النهاية ، ومن أنصار هذا التفسير المؤرخ البريطاني **هنتغتون** الذي أكد بأن هناك فترات يقل فيها سقوط المطر مما أدى الى تحويل المزارع الى مراعي و ضعف الإنتاج وهيجان القبائل الرومانية ، وقد سجلت المرحلة التاريخية الممتدة بين 200 الى 400م نقصاً متزايداً في هطول الإمطار أدى الى الجفاف والمجاعات والى تحركات البرابرة وطغيانهم على الإمبراطورية في الغرب. ويرى المؤرخ **سيمخوفتش** نفس رأي هنتغتون مؤكداً ان قلة الأيدي العاملة بسبب انتشار الملاريا أدى الى قلة عدد الفلاحين، اما المؤرخ الروماني بلني فأنه يؤكد ان عدم قدرة الإمبراطورية على التوازن الاقتصادي أدى الى انهيار الحياة الاقتصادية. ويشير الأستاذ روستوفتزيف ،المختص بتاريخ العصور الوسطى، ان النزاع بين الطبقة الارستقراطية والفلاحين أدى الى تعميق مشاكل الإمبراطورية ،وكان الجيش الى جانب الفلاحين و حدثت معارك طاحنة أدت الى إضعاف الإمبراطورية.

3- النظرية الرسية (العرقية) Race Theory :

تؤكد هذه النظرية ان العناصر غير الرومانية هي التي قضت على الإمبراطورية، وهذا النقص في العنصر الروماني أدى الى تسلط العناصر غير الرومانية على الحكم. ويؤيد المؤرخ الانكليزي **ارنولد توينبي** Arnold Toynbee ، الذي درس إحدى وعشرين حضارة عالمية ،هذا الرأي مشيراً الى فشل الإمبراطورية في تمدين الفلاحين والقبائل الجرمانية مما أدى الى ضياع المثل الارستقراطية وسيادة العقلية الجماهيرية المعتمدة على الدين والمناهضة للمثل الارستقراطية، وبذلك يؤكد توينبي ان الرومان فشلوا في رومنة القبائل الجرمانية(اي جعلها متشربة بالقيم الرومانية) وتمدينها مما أدى الى سيادة المفاهيم البربرية المعاكسة للحضارة الرومانية ،بمعنى ان الجرمان نجحوا في جرمنة (أي جعله جرمانياً) المجتمع الرومانية.

4- النظرية الحياتية (البايولوجية) Biological Theory :

من أبرز أنصار هذه النظرية المؤرخان **اسكويث** Asquith **وشبنغلر** اللذان شبها الدولة **بالكائن الحي** الذي يمر بثلاث مراحل : مرحلة الطفولة والشباب والكهولة ثم الوفاة ، وان الإمبراطورية الرومانية كانت تمر بمرحلة الكهولة مما أدى الى سقوطها على أيدي العناصر الجرمانية التي كانت تمر بمرحلة الشباب. ووفقا لذلك، يؤكد هذا التفسيرعلى العامل البايولوجي (الحياتي) لسقوط الإمبراطورية الرومانية.

Scanned with CamScanner

5- العوامل الإدارية :

هناك من المؤرخين من أكد على ان الإمبراطورية الرومانية سقطت بسبب الإصلاحات الإدارية التي قام بها الإمبراطور **دقلديانوس** (284-305)، اذ أدت هذه الإصلاحات الى ضعف الإمبراطورية الرومانية، أما أهم الإصلاحات الإدارية التي قام بها دقلديانوس فهي :-

أولاً: قسم البلاد الى أربعة أقاليم

(1) إقليم بلاد الغال

(2) إقليم ايطاليا

(3) إقليم اليريا

(4) إقليم الشرق ويشتمل على الجهات الشرقية من البلقان وآسيا الصغرى ومصر.

ثانياً: جعل الإمبراطورية تحت أدارة إمبراطورين

(1) الإمبراطور الذي يدير الجهات الشرقية ومركزه في نيقوميديا

(2) جعل على القسم الغربي إمبراطورا يشرف على الأقسام الغربية ومقره في ايطاليا، أما العاصمة فكانت متنقلة بين المدن الايطالية مثل روما وميلان. وجعل أيضا قيصرين في القسم الشرقي وقيصرين في القسم الغربي.

ثالثاً: قسم الأقاليم الى وحدات اصغر.

رابعاً: فصل بين الجهازين العسكري والمدني في المعاملات الإدارية.

خامساً: جعل المهن وراثية.

هذه الإصلاحات السياسية والإدارية التي قام بها الإمبراطور دقلديانوس، الى جانب إصلاحاته الاقتصادية التي حاول من خلالها إنعاش الوضع الاقتصادي بسكه لعملات جديدة قلل فيها نسبة الذهب والفضة ، أسهمت في تأخير سقوط الإمبراطورية ردحا من الزمن ،الا أنها زادت، في الوقت ذاته، من تفاقم المشكلة الاقتصادية مما أدى الى فقدان العملة سمعتها .

أما إصلاحاته في **الجيش** ، فانه حاول ان يحل مشكلة النقص الحاصل في الجنود، فسمح للعناصر غير الرومانية بالانخراط في الجيش مما أدى الى القضاء على القيم الأرستقراطية التي كان الجيش ينشد أليها، يضاف الى ذلك ان دقلديانوس نفسه يعد خير ممثل للعصر الذي عاش فيه ،فهو لم يكن من الأسرة الارستقراطية بل من أسرة فلاحيه من مقاطعة دالماشيا ، في آسيا الصغرى ، تدرج في المناصب الإدارية الى ان وصل الى رتبة الإمبراطور . وعلى اية حال، فان إصلاحات دقلديانوس الإدارية والاقتصادية والعسكرية قد أسهمت في إضعاف الإمبراطورية الرومانية وإسقاطها فيما بعد.

Scanned with CamScanner

6- نظرية اداورد گيبون Edward Gibbon :

من مؤرخي القرن الثامن عشر أي عصر التنوير او الاستنارة وسمي ايضاً عصر العقل وهو عصر فولتير وجان جاك روسو وميرابو وغيرهم من المفكرين. لخص ادوارد گيبون آرائه بما يأتي : ان سقوط الإمبراطورية الرومانية يرتبط بعاملين :-

1- **انتشار الديانة المسيحية .**

2- **تدفق القبائل الجرمانية.**

ففي ما يخص العامل الأول، يشير گيبون بأن المسيحية قبل الاعتراف بها في عهد قسطنطين الكبير Constantine the Great(306 – 337) كانت عبارة عن معول هدم لكيان الإمبراطورية ،لمخالفة قيمها وتعاليمها للقيم الرومانية السائدة، فمن الناحية السياسية عدت المسيحية مفككة لرابطة الولاء للإمبراطور، لعدم اعتقادها بقدسية الإمبراطور الوثنية، ومن الناحية العسكرية لم تكن تؤمن في بدايتها بالعنف ،فهي ضد الحروب وضد العسكرية. اما مواقفها من القضايا الإقتصادية فكانت سلبية لأنها لا تؤمن بالإرباح المادية وكانت تدعو الى الكفاف،كما هو شعارها الرئيس ،وكانت هذه النظرة محبطة للقيم الاقتصادية السائدة في المجتمع الروماني المعتمد على العبودية ، وهي ضد الامتيازات الطبقية فدعت الى المساواة.الى جانب ذلك ، فان الصراع المذهبي بين الطوائف المسيحية كان من أسباب ضعف الإمبراطورية بقسميها الشرقي والغربي.

وفيما يخص النقطة الثانية ، يرى هذا المؤرخ ان **الجرمان** قد أسهموا في بربرة المجتمع الروماني وبالتالي أضعاف القيم السائدة مما أدى الى إرباك الحياة الاقتصادية.

ردت المدرسة التاريخية الألمانية على طروحات گيبون ،اذ دافعت عن المسيحية لان للكنيسة رسالة إنسانية ،وعملت على ترويض القبائل الجرمانية الغازية وحفظت التراث الروماني وأدت دوراً تثقيفياً طيلة العصور الوسطى .أما عن الجرمان فقد دافعت المدرسة التاريخية الألمانية عنهم على اعتبار ان هذه القبائل لم تحاول اقتحام الإمبراطورية بالقوة دائماً وإنما كان توغلها سلمياً أحيانا للعيش والاحتماء ،فأنخرط الجرمان في الجيش وعملوا كفلاحين ،وكانت القبائل الجرمانية عنصر قوة في المجتمع الروماني بعد ان أصابه التدهور والانحلال الخلقي وكان الجرمان أرقى خلقاً من الرومان ونستدل على ذلك مما كتبه المؤرخ الروماني تاكيتوس Tacitus في القرن الثاني الميلادي حينما أشار في كتابه **جرمانيا** Germania بأن **"الجرمان أرقى خلقاً وامتن مجتمعاً من الرومان وان النساء الجرمانيات أكثر عفة من الرومانيات".**

Scanned with CamScanner